

القصص

قصة مصرية

تقاليد...

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يكن حامد قد أتم دراسته العالية حين بدأت تقوى صلته بصديقه حسين افندى ، ولم يكن الحديث بينهما كلما تقابلا يتجاوز السؤال عن الصحة والانجال ، والدكريات القرية عن جهادهما في صفوف الشباب الوطنيين ، ولا يذكر حامد انه زار صديقه حسيناً في منزله غير بضع مرات كان في معظمها مريضاً ، وما أكثر ما يشكو المرض ! ومرة دعاه حسين افندى الى زيارة منزله فلي ، وكانت هذه أولى زيارات متتابعة قوت بينهما رابطة الاخاء والود ، وزادت إخلاصهما تمكينا وقوة .

كانت منيرة بنت حسين افندى فتاة فارعة الجسم ، معتدلة القامة ، خمرة اللون ، فاتنة النظرة ، عذبة نغم الحديث ، تبدو في أنوثة فاتنة نضجت في شعاع ثمانية عشر ربيعاً . ورآها حامد فاعجبه أن يتحدث اليها ، وأن يتحدث اليه ، وأن يشعر في أثناء ذلك أنه موضع اهتمامها حين تسأله عن حياته في القاهرة وحيدا أيام الدراسة ، وابتدأ أهل البيت يرتاحون لزيارته في ثقة واطمئنان ، وابتدأ هو يحس الشوق كلما أخلف موعد هذه الزيارة . وصار من المألوف أن يزورهم كل يوم ، وأن يسألوا عنه كلما غاب . وانتهى الصيف وعاد حامد الى القاهرة يستقبل العام الثاني من دراسته في كلية العلوم ، ولكنه لم يشعر بالاستقرار وهدهوء البال اللذين كان يشعر بهما في العام الماضي ، وإنما كان كثير الحنين الى البلد حيث قضى أيام الصيف . أهو شعور السأم من الوحدة في بلد تدوق كل ما حل من لذاته ، أو ملل الدارس طال به انتظار الثمرة ، والحنين الى أهله والصفوة من أصحابه في البلد الذي نشأ فيه ؟

لم يستطع حامد أن يجيب على هذا السؤال الا بعد أيام حين وصلته رسالة من صديقه حسين ، أودعها شوقه وتحيته ، يخبره أن منيرة مريضة منذ أيام . ما كان أسرع صاحبنا حينئذ الى كتابة جواب هذه الرسالة ، على كسله وتوانيه في كتابة الرسائل لم يذكر

شيئا من رسالة صديقه الطويلة ذات الصفحات الاربع غير مرض منيرة ، ولم يكتب شيئا في جوابه غير السؤال عن منيرة والاهتمام بها ، والدعاء لها ، وفي صندوق البريد ألقى الجواب ، ثم خرج منفردا في نزهة وراح يفكر ... وبداله أنه كان متسرعاً كل التسرع ، عجلا كل العجلة ، فيما ضمن جوابه من عبارات . أى صلة بينه وبين حسين افندى تسمح له أن يهتم كل الاهتمام بابنته ، وأن يصرح بالشوق اليها ، والالام الموجه لمرضها في كتاب لا يها وليس من التقاليد أن يتكلم الشبان عن بنات أصدقائهم بهذه اللهجة الناعمة المفتونة ؟ ولكن حامداً نفسه لم يكن يعرف لماذا كتب ذلك ، ولا كيف اندفع اليه ونسى التقاليد والادب اللائق ، أكان يحبها وهذا وحي عاطفته ودافع وجدانه ؟ ربما !

بلغته رسالة أخرى من صديقه حسين افندى ، فلم يكن بها ذكر لمنيرة أو نبأ عنها . أكان تجاهلا مقصودا ؟ وهل كان ذلك من أثر رسالته ؟ ترى ماذا كتب فيها ؟ لقد نسي كل ماجرى به قلبه ، ولم يذكر الا انها كانت رسالة تجاوز بها التقاليد التي يدين بها حسين افندى أكثر مما يحرص حامد على نبذها ...

وكأنما انقطعت عنه أخبار صاحبه منذ أمد طويل لا منذ أيام ، وابتدأت تغزو فكره مرات في اليوم الواحد ، وأخذ يذكر حديثها ويستعيد الكثير مما ينكره ويردده بلسانه في لحن عذب الايقاع ، وطارت حولها أمانيه ، وعقد بها مستقبله . لقد كانت وهي بعيدة أفق منها بين عينيه ! ولم يشغله فيما تلا ذلك من أيام الا أن يحصى كم بقي من الزمن ليعود الى هناك ...

وكثرت زيارته للبلد : زارها مرتين في الشهر الأول ، وثلاثاً في الشهر الثاني وكان في كل زيارة من هذه الزيارات يجد نفسه مسوقا الى ناحية بيت حسين افندى ، فيقضي هناك بعض الوقت قبل أن يزور أمه واخوته . ورأى في ترحيب صاحبه به ، وسرورها بمقدمه معنى لم تسكره عيناها ، واعترفت به ضغطة يدها عند اللقاء وعند الوداع . لم تعد به حاجة لأن يسأل نفسه عن سر ذلك ، فقد أيقن أنه وأنها ...

وأضمر أمراً وأسرّه إلى صديق ، فقد كان يفكر في أن يختارها لنفسه زوجة ، ولكن أترأه يستطيع أن يقدم على ذلك وهو ما يزال طالباً بينه وبين رجولة الأزواج أعوام ثلاثة ؟ وماذا عليه لو خطبها إلى أبيها وطلب إليه أن ينتظر حتى يتخرج ، أترأه يقبل ذلك ويرضاه لها ؟ وكيف يبدو الحديث ، بل كيف يتحدث الناس في هذا الشأن ؟ لقد مات أبوه منذ سنوات ، والآب هو الذي يستطيع أن يتحدث باسم ولده في مثل هذه الشؤون ... ولم يطل به التفكير في ذلك ، فقد ذاع ماحسبه سراً يده وبين صديقه حتى وصل إلى مسمع الوالد !

(٢)

وزار البلد بعد ذلك ولكنه لم يسعد ببقاء حبيبته ، فقد حجبها عنه ، وأقاموا بينه وبينها التقاليد ، أى أغلقوا دونهما الأبواب وأرخوا الستور . قد تكون أسعد منه الآن ، فهي تستطيع أن تزج السجف لترأه كلما زارهم ، ولكنه لا يراها وليس إلى لقاءها من سبيل ! وابتدأ الدور الثاني من أعراض الحب ، وعصف الشوق بقلبه ، وعبث بلبه ، وسيطر على ذات نفسه . وانصرم العام لا يذكر أنه رآها في خلاله أو استمتع بها غير نظرات كحسوا الطير ، ما كان أفرحه باجازه الصيف ! لقد كان يظن أنه يستطيع في إبانة أن يصل ما انقطع من لذاته باللقاء — عهده الأول — ولكن ما كان أبعد أمانيه ... ! وضافت نفسه بما نجد ، وأحس الشوق يفري كبده ، والحسرة تشوى قلبه . وانقضى الصيف ، وعاد إلى القاهرة لم يتزود بتسليمة مشتاق أو نظرة وداع ، وحسب أنه هناك يستطيع أن ينشد السلوة ويلتمس العزاء في جوها الصاحب ، ففضى أيامه الأولى بها على شر ما يقضيها العاشق . ولكن شأناً خاصاً دعا صاحبه أن تزور القاهرة وقتئذ ، وتنزل في ضيافة بعض ذوى قرباها هناك ، فتجدد الامل عنده ، وأحس كأنما نسيم القاهرة أصبح ندياً عبثاً بعد إذ كان ناراً حامية يصلها بعيداً عن الاهل والأحباب ... وكان من حظه أن لم تجيء معها التقاليد فتلاقيا غير مرة ، وخرجا للزهة مرات ، فلم يتركا بين منازل القاهرة موضعاً لم يشهداه على حبهما ، ثم عادت إلى البلد وخلفت له الشوق والحنين ، وكلما لج به هواه وألح عليه الشوق أنس في وحدته بذكري تلك الأيام القليلة ، أو خرج يلتمس العزاء هناك ... حيث كانا يجلسان ، لعله يسمع في همس النسيم صدى ما كانا يتناجيان ، أو يستوحى عيون الزهر سر ما استودعاه لديها من عهود الماضي ، ويسمع في خرير الماء رسالة ضلت الطريق إليه ، أو يتفياً في ظلال الخائل

مجلساً طالما بسط لهما ذراعيه وضم . هيات ! لقد صمت النسيم إلا حين المهجور ، وجف الزهر إلا عبرة الآسى ، وخرس الماء إلا بكاء الواجد ، وسكن الشجر إلا هزة الشيخ حطمته السنون . ليته لم يلحقا بعد إذ يأسه منها ذلك البعد الطويل ، لقد كان من يأسه في راحة ! ... كيف تمر الايام على الغريب أو حشت نفسه وانقطع ما بينه وبين الناس ؟ إنه ليخيل إليه أن الزمن عبء ثقيل على كتفيه يجاهد للخلاص منه ولو بالخلاص من الحياة ، وكلما عاد بنظره إلى الخلف عجب كيف استطاع أن يقطع كل ذلك الماضي وكيف انصرفت أيامه والحلم لم يخف عن كتفيه ، ولم يزل بينه وبين الخلاص أمد لا يمتد النظر الى نهايته ؟

الآن لم يبق بينه وبين الحصول على اجازة كلية العلوم غير عام واحد يستطيع بعده ان يتقدم في ثقة بنفسه واطمئنان إلى مستقبله ليخطبها إلى أبيها ، ولكنه حسب إن هو تعجل الحديث في هذا الشأن فتفتحت أمامه الابواب ، وانزاحت الحجب ، وانكشف الستور ، واستطاع أن يظفر ببقاء (خطيبته) على عين أهلها وأن يتحدث اليها بينهم . واغتم فرصة سانحة ، وما هي إلا أن استجمع شجاعته ، فانطلق يحدث أباه ، وأبوها ينصت اليه في هدوء . لاشك أنه كان ينتظر أن يسمع هذا الحديث منذ زمن طويل ، وأنه هياً في خياله صورة هذا المجلس من قبل ، فلم يلبث أن تصالفا في حرارة وعزم ، وقلباهما مفعبان بالسرور ، وعلى أساريرهما بشر ناطق .

منذ ذلك اليوم أصبح حامد خطيب منيرة ، وإن لم تتناقل الافواه هذا الخبر لانهما حاولا أن يقياه سراً بينهما حتى يحين يوم إعلانه ، وأحس حامد بعض إحساس الملكية لشيء في هذا البيت الذي كان الناس يرونه كثير التردد عليه ، ويدفعهم الفضول الى البحث عن دواعيه . ولكن لم يتغير شيء مما ألفه حامد ونقم عليه وحاول الخلاص منه من قبل ، فلا هو استطاع أن يرى خطيبته أو يتحدث اليها ، أو يسأل عنها سؤال الشخص عمن يهيمه ، لقد زاد الحجاب بينهما ، وزاد التكلف ، وبدأ حديث حسين افندى عن بعض شؤونه الخاصة فيه بعض الحذر وبعض التأق ، وهو ما لم يكن معهوداً بينهم من قبل ، وأصبح صاحبنا حامد يخجل أن يبدو منه بعض الاهتمام بشأن منيرة ، حتى ليتحاشى أن ينطق باسمها ، كأنه يحس في اختلاج شفته عندئذ لهفة مشتاق ، وفي نبرات صوته رنين قبله مكشومة ، وإذا نطق به مرة في مثل مناجاة الحالم أو اقرار الخاطيء ولم يكن حامد ليسره ذلك أو ترتاح اليه نفسه ، لقد كان يريد

على الطعام... ولكن الأم لاتمنع أولادها الطعام إلى أن يشق بهم الجوع على الهلاك، ولاهى تمنعه لتطعمه قطط الحى وكلابه، ليس قريبا الذى فتحت له الباب ورفعت الحجاب ووقفت تحذره جدرا بهذه الوقفة على مرمى نظراتها الفاتنة، ومن دون خطيها الذى يتلف شوقا إليه أبواب موصدة وحجب مضاعفة، لماذا لم نمتنع عليه قبل الغضب يهمس القدر فى أذنه بامنية الزواج منها؟ ليتة رضى ان يبقى صديق الأسرة زمنا آخر فلم يخطبها ولم يجر حديث الزواج على لسانه، إذن لبقى كما كان - مأمون الجانب - لاتدق أجراس الحذر لمقدمه، ولا تغلق دونه الابواب! ولا يعرف التقاليد ولا تعرفه...

ولم يطل بحامد مجلسه فى غرفة الاستقبال بعد، فخرج مغضبا وفى عزمه ألا يعود! ولكنه عاد بعد أيام... ومادام بين جنبيه قلبه الواهى فلن يستطيع ان يدبر أمرا أو يحكم خطة.

ومرت أيام، ومحا جديد الشوق ماضى الغضب، وجلس مع أيتها يتحدثان فى غرفة على الردهة لايحتجب من يمر قبالتهما، ودق باب البيت، وفتحت الخادم، وقام أبوها فأوصد باب الغرفة، لقد كانت آتية من زيارة إحدى قريباتها، فابت التقاليد إلا أن يقوم أبوها فيغلق الباب دونها حتى تمر، وماذا يكون لو رآها كما يراها آلاف الناس فى الطريق؟ بل كما يراها ذلك الشاب الذى جاء يشيعها إلى دارها؟ وماذا لو كان هو الذى يصحبها ذاهبة لبعض شأنها أو عائدة؟ تقاليد؟ لتسحق هذه التقاليد قبل ان تسحقه، إن كان لابد ان يكون أحدهما ضحية. لقد كانت تذهب إلى السينما فإى حرج فى ان يكون بجوارها هناك، وهى حين تجلس فى مقعدها وترفع النقاب عن وجهها لاتبالى من يجلسون بجوارها، وفيهم الفتيان وفيهم الكهول. وعادت الغيرة تاكل قلبه، وتوقد النار فى صدره، وجاهر بغضبه، وعادت تتمتع الاعتذار. وأبوا عليها ان تسافر فى موعد خاص حددوه لها من قبل، لأن صاحبنا كان قد حدد هو أيضا ذلك الموعد نفسه لسفره، وماذا لو عدوه رجلا ككل الرجال الذين تقدر كل مسافرة ان تراهم يرافقونها فى القطار؟ وأخلفت موعدها وسافرت وحدها، وسافر وحده، حذر ان يراها أو يجلس إليها، كما يراها ويجلس إليها كل الناس!

وقدر حامد أنه لا يستطيع أن يصبر طويلا على ذلك البعد الغيور، ورأى أن يتعجل أمره حتى إذا ظفر بزوجه استطاع

بتعجيل الخطبة أن يكون أقرب اتصالا بصاحبه فاذا هو أبعد مما كان، ولقد صرح عن رغبته مرة أو مرتين فكان اعتذار حسين افندى مضحكا حين نسب الى ابنته الخجل والتأبى على ذلك فكأنما تأبى شيئا ترضاه، لقد كان حامد يريد أن يستوثق من حب صاحبه ونباتها على العهد قبل أن يسافر الى القاهرة، ولعله كان يريد أن يتزود من حبا بما يقوى عزمه على المضى فى جهاده المدرسى مرحلته الاخيرة. عجيب! لقد كان الى قريب يستطيع أن يراها وان يبادلها الحديث ولو بابتسامة أو إيماءة على بعد، ولم يكن غير ذلك الشخص الذى يزورهم كثيرا لأنه صديق ابيا، حتى إذا ارتبطا بعهد وثيق على أن تكون زوجته، وان يكون أقرب الناس إليها - حيل بينهما وضوعفت الحجب والسور! تقاليد؟ لو أنه لم يكن قد رآها من قبل ولم يجلس إليها يتحدثان الساعات، ويمتد تعارفها السنين - لكان من حق التقاليد أن تسيطر على عواطفهما وتملى إرادتها! تقاليد؟ إن الجهل بعض تقاليد الماضى... إن المولى لا يملكون ان يتصرفوا فى شؤون الأحياء!

ولم تقطع زيارته، ولكنها كانت زيارات جافة مملولة، لقد كان يذهب الى هناك كل يوم، لا يكاد يرى فى الطريق من يحبه، لانه لا يرى غير صورة واحدة يبتكرها خياله لتصبحه الى هناك، وحين يعود، ما كان أتعسه! هو آدم، ولكنه نهبط من الجنة قبل أن يذوق الثمرة، وعلى وجهه علائم الحية واليأس والسخط والتبرم بكل شيء، ولكنه كان يذهب كل يوم...

(٣)

وأحس حامد وخزا ألبا بين جنبيه حين علم ان التقاليد المعكوسة لاجعلها تحتجب عن غيره من شبان الأسرة، وحين سمع صوتها تحدث الى واحد منهم فى الغرفة المجاورة، لم يحرم عليه ما يحل لغيره؟ ألا أنها خطيبتها؟ لقد كان ذلك أجدر ان يرفع بينهما الحجاب؟ وابتدأت الغيرة تدب فى صدره. أليست تخرج من المنزل قليلا أو كثيرا لمثل ما يخرج له الفتيات من لداتها زائرة أو متفرجة؟ أليست تسير فى الطريق يتنهب من حسناتها كل ذى عينين، ويستمتع بمراها كل من أسعده الحظ ان تلتقى بها عيناه؟ بحسبه مثل متاع هؤلاء: نظرة عابرة، أو نهلة عارضة، ولكنهم يسعدون بما يمتناه وهو به أحق ومنه محروم!!

أى معنى لهذه التقاليد إلا ان يكون من مثل تصرف الأم مع صغارها إذ تمنع عنهم الطعام حرصا على صحتهم، أو حرصا

لأن يقف من هذه التقاليد موقفا آخر ، ولكن التقاليد أشارت
بجسديتها جزءا لطوي وموقفت تعترض الطريق : لقد كان هناك بعض
ما عورت لها في رأي الرجال الماضي شأن واعتبار تأتي هذا التعجيل ،
لنضع صاحبنا للامر مرة أخرى ووقف ينتظر النار تأكله ،
والتقاليد تذيبه .

لكن ترى كيف حالها في إسارها بين هؤلاء الذين يحضون عليها
النظرة والابتسامة ، وهي المشوبة العاطفة الدقيقة الحس ، التي يعلم
أنها لا تصبر عن لقاء أكثر مما يصبر ؟ لقد استطاع مرة أو مرتين
أن يتلاقى على غير رقبة ، وعلى غير موعد أيضا ، فلما تمت عينها
بمكون قلبها وافترض السر لديهم ، كان سؤال فيه إعانت ، وجواب
سعيد حرج ، فلم يشفع لها غير الدموع !

مبداً لقد مر بعد ذلك أستان أو يزيد ، وموقف صاحبنا لم يتغير ،
وتأتى التقاليد أن تخرج من موقفها لتفسح الطريق لزوجين يريدان
التمتع بسعادة العيش قبل فوات الشباب ، وشعر أن فؤاده يهرم .
وإن ذلك الحب الذي كان يعمر قلبه ابتداء يتحول إلى ذكرى حزينة
نياسة ، موطوءة الحلقى الجميل التي كانت ترف ناضرة أمام عينه - تدوى
أو تغوى من فتنة الغواية ، والمستقبل الباسم الذي صورته لنفسه من
أما طيف الأمل لتطمس رواء آلام الحاضر العابس ، ويثس ،
سوق من غرامه الأول والآخر بالذكرى يستعيدها ليعيش فيها
لحظات . لقد كان يكره التقاليد لأنها صورة الماضي البالية ، ولكنه
عاد لا يفكر من إلا بالماضي ، ولا يرضى أن يعيش إلا فيه !

هذا هو المبدأ (٤)

أولئك الذين يوضحون أنفسهم على السلوان ، وأن يدفن ذلك الماضي
في أعماق النسيان ، ولكن ناراً بين ضلوعه كانت تشعل هذه الذكرى
كلما هم أن يطفئها ، وقلبا بين جنبيه كان لا يفتر ينبض ، وريشة في
الخيال تمحو صوراً وتبعث صوراً .

وعند يقف أن سلطان التقاليد أقوى من سلطانه ، فكيف يحتمل على
هذه التقاليد حتى تبتلع له قيادها ، ويملي فيها إرادته ؟ لو كان يدرى
مضى تاذن له أن يخطئ خطيئته إليه لاستطاع أن يحمل نفسه على
الصبر ، ولكنها توجل دائماً إلى الغد ، والغد لا يتحقق .

لقد رأى أحبا أمس ؛ نهض صدرها ، وتحير في خديها ماء الشباب ؛
لقد أصبحت هي أيضاً عروسا ، أصبحت تنظر نظرتها ... ولو
فحش فيها وراء هاتين العيتين لظهر من خلفهما في مرآة الأمل -
الزوج الذي أبدعت تخيله وأجادت رسمه .

وخطر له خاطر : لو أن شاباً تقدم غداً الى حسين أفندي يطلب
يد (سعاد) ورأى فيه ما يحمله على قبوله ، فإذا يكون من أمره ؟
ستأتى التقاليد ولا شك - أن يزوجه قبل زفاف أحبا ، وأنه
لحريص على التقاليد ، وسيأتي عليه أيضا بر الوالد أن يفلت منه هذا
الحاطب . وجه التدبير إذن أن يعمل على تعجيل أمر حامد ومثيرة
ليخلى الطريق لسعاد ، فيسبى من تقاليد ليبدأ تقاليد غيرها . . .

ياله من أمل ! إذن لاستطاع حامد أن يتغلب على التقاليد
بالتقاليد نفسها ، بل إن يمل عليها إرادته وهزأ بها كما أملت عليه
إرادتها من قبل هازمة جبارة !

ومرت أيام ، وتلتها أيام . . . ولجأة وقعت المعجزة وكان ،
وقعا سعيدا ، لقد تقدم الحاطب الوجه يطلب يد سعاد .

كيف تقدم .. ؟ من أين تقدم .. ؟ من يدرى .. ؟
وابتدأت التقاليد دورتها في فلك جديد ، ترمى إلى هدف آخر ،
أما حامد أفندي فقد هدأت نفسه ، وتفاطل الظأئنة . لقد ظفر
بأمنية الحياة . . .

ولكن .. هل تزوجت سعاد بهذا الحاطب .. ؟
محمد سعيد العريان

العلوم

مجلة علمية ، أدبية ، اقتصادية تصدر مؤقتا مرة في الشهر

يسرنا أن نرحب بصحيفة راقية جديدة . محررها نخبة من
رجال العلم الأفاضل ومحاولون فيها أن يقربوا المسائل العلمية
الدقيقة الى أذهان القراء غير الاختصاصيين .

ذلك هو الغرض الذي ترمى اليه (العلوم) التي صدر منه العدد
الأول في الشهر الماضي ، ولا يتسع المقام هنا للإشارة الى
ماتضمنه من بحوث سهلة قيمة ، ولكن اذا كان لنا أن نسترشد
بهذا العدد للحكم على ماسيأتي بعده ، فانا لا نشك في أن حضرات
المحررين الأفاضل قد وفقوا الى تحقيق غرضهم والى خدمة القارئ .
المتعش للثقافة العلمية دون أن يكون لديه الوقت ولا الوسائل
التي تمكنه من دراستها دراسة عميقة .

ونحن نرجو أن تلقى هذه الصحيفة النافعة من القراء ماتستحقه
من التشجيع